قاهر الفرس
ورافع راية التوحيد

# المثنى بن حارثة

obeikandl.com

obeikandl.com

# المثنى بن حارثة

## قاهر الفرس ورافع راية التوحيد

المثنى بن حارثة الشيبانى ، واحد من أعظم الشخصيات التى لعبت دورًا مهمًا ، بل بالغ الأهمية فى تاريخ الفتوحات الإسلامية الكبرى فى صدر الإسلام. ورغم هذا الدور الهائل الذى قامت به هذه الشخصية المبهرة ، فإن الكثيرين يجهلونه؛ لأن المؤرخين والدارسين لم يسلطوا عليه الأضواء كما ينبغى.

فهو ينتسب إلى أحد بطون قبيلة بكر بن ربيعة ، تلك القبيلة التى اشتهرت بين القبائل العربية بتحديها دولة الفرس ، وتصديها لها فى بعض المعارك ، والانتصار على من تصدى لهم من جيوش الفرس. لقد حققت هذه القبيلة الانتصار فى تحديها لهذه الإمبراطورية البالغة القوة والعنف ، رغم أن اسم الفرس كان كافيًا لأن ترتجف منه القلوب، فهى إمبراطورية بالغة القوة والجبروت ، لم يتصدَّ لها إلا دولة الرومان التى كانت هى والفرس تقتسمان العالم.

ومن أجل السيطرة على العالم قامت بينهما المعارك المتتالية تنتصر إحداهما حينًا، وتنهزم حينًا آخر ، والحرب بينهما سجال لا تنتهى ، فكيف تتصدى قبيلة تدفعها النخوة العربية للتصدى لمثل قوة الفرس إلا أنها قبيلة كانت تمتاز بالشجاعة وإباء الضيم ، والموت فى سبيل الكرامة.

والمثنى بن حارثة قد تصدى هو الآخر لإحدى الفرق الفارسية، وانتصر عليها، واستولى على كثير من الغنائم فى معركة لا تُنسَى على شاطئ الفرات، وهذا الانتصار الذى حققه جعله يوقن أن الفرس رغم قوتهم يمكن التصدى لهم فى معركة جانبية ، وإن كان فى نفس الوقت يؤمن أنه من المستحيل الانتصار على الفرس كدولة لها كل هذه السطوة والقوة والجيوش المدربة.

وكان أيضًا يؤمن أن القبائل العربية متفرقة لا تجتمع، ولا تتعاون مع بعضها، وليس هناك هدف مشترك يوحد بينها ، ويجعل من العرب قوة قادرة على التصدى لمن يريد أن يتربص بهم الدوائر. كان يؤمن بذلك وينتابه الأسى. فلولا جدب الصحراء فى شبه الجزيرة العربية وفقرها الشديد لداستها خيول الفرس ، وأحكمت عليها السيطرة ، واستعبدتها كما استعبدت بقية شعوب العالم من إحدى القوتين العظميين فى العالم ،

الفرس أو الرومان.

فلم تلفت شبه الجزيرة العربية نظر أحد ، وليس لها أية قيمة أو منفعة، فصرفوا النظر عنها باستثناء بعض أجزاء من اليمن.

وذات يوم جاءته الأنباء بأن أحداثًا خطيرة وقعت فى الحجاز ، وأن هناك نبيا يدعو إلى الإسلام ، وأن هذا النبى العظيم يدعو إلى كل ما هو عظيم ونبيل وجليل ، وأنه يأتيه الوحى من السماء، فدَعْوَتُه شريعة ومنهاج حياة يربط الإنسان بأخيه الإنسان بروابط المودة والحب والتعاون والرحمة ، ويجعل لحياة الإنسان معنى باعتناقه عقيدة التوحيد، فالوجود لم يأت اعتباطًا ، ولكن هناك الخالق الأعظم ، الذى أوجد الوجود من عدم ، وأن حياة الإنسان فى الدنيا لا تنتهى بالموت، بل إن وراء هذه الحياة الدنيا حياة أخرى يجازى فيها المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته، والإنسان الذى يريد سعادة الدارين عليه أن يؤمن بالله ويستقيم.

شدَّتْه هذه الدعوة كثيرًا ، وهو يرى أنها هى التى ستوحد بين قبائل العرب ، وتجعل منهم قوة لم يعرفها العرب فى كل تاريخهم. ولكن هذه الأخبار التى كانت تصل إلى المثنى ، بعيدًا، هناك على شاطئ الفرات كانت تصل إليه ناقصة الدقة والوضوح.

إنه يسمع عن معارك طاحنة بين المسلمين والمشركين ، ويسمع

أيضًا عن الانتصارات التى يحققها الرسول الكريم ﷺ ، ويسمع أيضًا عن شخصيته الآسرة بقوتها وجلالها وسمتها العظيمة. ويسمع عن أخلاقياته الرفيعة وزهده وتقشفه.

ودفعه الشوق إلى أن يتوجه إلى موطن النور ، إلى مدينة رسول الله ﷺ ؛ ليرى أعظم من عرفته الحياة فى جلاله وعلمه وورعه وتقواه. وكان ذلك فى العام التاسع الهجرى، حيث كان الإسلام قد ثَبَّتَ أقدامه.

وحيث إن الدولة قد توطدت أركانها ، وبمعنى أدق أصبح العرب لأول مرة دولة على رأسها النبى الخاتم ، ودستورها القرآن الكريم وسنة آخر رسل الله ، وكان الناس قد دخلوا فى دين الله أفواجًا، وطهرت الكعبة من الأصنام.

شعر المثنى من أعماقه بالإيمان يسرى فى كل نقطة من دمه، وتوجه إلى أعظم رسل الله فأعلن إسلامه ، وعاد إلى شاطئ الفرات وخياله يرسم له صورة مشرقة لمستقبل العرب والإسلام. لم يعد العرب قبائل متنافرة متحاربة ، بل أصبحوا ينضمون تحت لواء دولة واحدة ، وعقيدة توحد بينهم على الحب والمودة والرحمة والنظرة المتفائلة إلى غد أكثر أملاً وإشراقًا. ورأى بعين خياله أن المستقبل لهذه الأمة التى يمكنها أن تواجه القوى العظمى

وتنتصر عليها ، بل إن الرسول الكريم ﷺ قد خرج بجيش إلى تبوك ليجابه الروم ، ولكنهم رغم جيوشهم الكثيفة لم يستطيعوا مواجهته ﷺ.

إنه الفجر الجديد إذن. إنه النور الذى سوف يضىء ظلمات الدنيا ومتاهات الوجود.

وينتقل أعظم من عرفته الحياة إلى رحاب ربه العظيم ، فتنتاب المثنى الأحزان ، ويشعر فى أعماقه بالأسى. ليته كان معه فى معاركه التى خاضها ، وهو الإنسان الذى عشق الحرب ومقارعة الأعداء. بل إن هناك فَرْقًا بين الحروب التى عشقها قديمًا ، وليس وراءها من دافع سوى الكبرياء وذيوع الصيت ، وبين الجهاد فى سبيل الله، حيث الشهادة فى سبيل الله أسمى ما يسمو إليه المؤمن. فالله - سبحانه وتعالى - يقول:

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [الأنفال: ٧٢].

كم كان أمله أن يستشهد فى سبيل العقيدة ليكون واحدًا من هؤلاء الذين يتمتعون برضاء الله ، وينطبق عليهم قوله تعالى:

﴿ **فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ** ﴾ [النساء: ٦٩].

وسرعان ما زادت أحزان الرجل وهاله ما يحدث. فما كاد الرسول العظيم ينتقل إلى رحاب الله حتى ارتد البعض عن الإسلام وأراد البعض الآخر أن يعطل ركنًا من أركان الإسلام ، وهو عدم دفع الزكاة. هال المثنى أن يرى العرب وقد ارتد الكثيرون منهم عن دين الله. . هذا الدين الذى أعزهم بعد ذل ، ورفع هامتهم بعد طول هوان. مالهم لا يريدون أن يرتفعوا إلى القمة الشامخة التى رفعهم إليها الإسلام!

وقرر المثنى أن يخوض المعارك ضد أعداء الله دون أن يكلفه أحد بذلك. وقد أعجبه تلك الروح الشجاعة العملاقة التى كانت تتمثل فى أبى بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ، وتصديه للمرتدين، فى نفس الوقت الذى أصر فيه أن ينفذ ما كان النبى الكريم ﷺ يريد تنفيذه بأن يرسل جيش أسامة بن زيد إلى الشام للانتقام لشهداء مؤتة.

وبدأت سحابات الأسى تنزاح من أمامه وهو يرى المواجهة الشجاعة لأعداء الله فى كل الميادين. وقرر أن يقوم بدور إيجابى فى معارك المصير ، فانضم مع بعض رجاله من قبائل ربيعة وشيبان إلى علاء بن الحضرمى الذى كان يواجه المرتدين فى البحرين، وجاهد فى هذه المعارك جهادًا ملحوظًا ، بل إنه استولى

على القطيف، وتابع زحفه حتى وصل إلى القرب من الفرات ، حيث كانت كثير من قبائله العربية خاضعة لسلطان دولة الفرس ، التى تسيطر على العراق كله.

كم كانت نفسه تتوق إلى طرد الفرس من العراق كله ، فاندفع بجيوشه إلى أرض فارس لتنضوى هى الأخرى تحت لواء الإسلام.

ولكن كيف يتحقق له ذلك ؟!

إنه رأى الرسول ﷺ كان قد أعد العدة لمجابهة الروم انتقامًا لشهداء مؤتة ، وأن الصديق يقوم بتنفيذ أوامر الرسول ، ولكنه يريد أن يكون الجهاد أيضًا مع الفرس ، وأن تنتهى أسطورة الفرس والرومان فى نفس الوقت ، ويكون النصر لدين الله، وترتفع رايات التوحيد على أمم طالما أضْنَتْها وعذبتها سياط هؤلاء الطغاة.

وكم كان عظيمًا أن يضرب هو نفسه المثال فى الجهاد ، ويطلق صيحته المدوية للجهاد ضد الفرس ، حتى يهوِّنَ من أمرهم أمام المسلمين ، فإذا به يتقدم وبصحبته أخواه «المعنى» و «مسعود» ومعهم رجال من قبيلته متقدمًا نحو مصب الفرات ودجلة؛ ليلتقى بجنود من الفرس، فيحاربهم وينتصر عليهم، ويحقق مكاسب هائلة للإسلام. وتصل أنباء انتصاراته إلى الخليفة فى المدينة،

فيُعجَب لجسارته وشجاعته، ولم يكن قد سمع عنه من قبل ، حتى رآه حين قدم إلى المدينة يطلب منه مددًا من الجيش ، يُعينه على هزيمة الفرس.

ولقد عجب الصديق أول الأمر من هذا الطلب العجيب ، فهو قد أرسل الجيش لمحاربة الروم ، ولم يكن يدور بخلده أن يحارب الفرس فى نفس الوقت ، ومن أين له بالجيوش التى تحارب الروم والفرس فى وقت واحد ، وهما أكبر قوى العالم فى ذلك الزمان؟!

عرض المثنى على خليفة رسول الله ﷺ عرضًا سرعان ما انشرح له قلب أبى بكر. لقد عرض أن يشترك فى الجهاد هؤلاء الذين ارتدوا عن الإسلام ، ثم عادوا إلى الدين بعد أن وجه إليهم الصديق الحملات العسكرية لتأديبهم ، وقتل من يرتد منهم عن الإسلام ، إنها فرصة أمامهم للتوبة والرجوع إلى الله ، فالجهاد سوف يزكى نفوسهم ويطهرها ، ويصبح للمجاهد إحدى الحسنين : النصر أو الشهادة ، فإذا عاش عاش عزيزًا مُكلَّلاً بالغار وغنائم الحرب ، وإن مات فقد مات شهيدًا فى سبيل الله.

وافق أبو بكر على اقتراح المثنى ، ولكنه كان يعانى المرض. وعندما شعر باقتراب الرحيل ، استدعى عمر بن الخطاب ،

وأوصاه أن يحقق مطلب المثنى بن حارثة ، ويرسل معه المجاهدين لغزو الفرس ، وكانت وصيته لعمر :

«اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به . إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا ، فإذا أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى. وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس معه. ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم. وقد رأيت متوفى رسول الله وما صنعت ، ولم يصب الخلق بمثله».

وينتقل الصديق إلى رحاب الله ، ويبايع الناس عمر بالخلافة.

ويحقق الفاروق وصية صاحبه على الفور ، فيندب الناس للجهاد مع المثنى ضد الفرس ، ويقوم خطيبًا بين الناس يحثهم على الجهاد فى سبيل الله ، ويقف المثنى هو الآخر خطيبًا بين الناس يحثهم على جهاد الفرس ، ويُهوِّنُ من أمرهم ، وكيف أنه انتصر عليهم ، وأنه من الممكن قهرهم.

لقد كان المثنى له دوره الهائل عندما ساعد خالد بن الوليد فى معاركه ، ثم كانت له مواقفه البطولية التى خلدها التاريخ الإسلامى عندما حارب تحت إمرة أبى عبيدة بن مسعود الذى ولاه عمر بن الخطاب القيادة ، وهو أقل كفاءة من الناحية العسكرية من

المثنى. وعن طيب خاطر ظل المثنى الشيبانى جنديا مقاتلاً لا يريد سوى النصر أو الشهادة ، دون أن يتوقف عند أحقيته فى القيادة ، وأنه هو الذى شجع على حرب الفرس. لقد تناسى نفسه فى سبيل هدف أكبر وهو العقيدة والذود عنها ، والجهاد فى سبيلها حتى النَّفَس الأخير.

## معركة الجسر وحشد الفرس:

وقد كانت إحدى المعارك الضخمة التى خاضها جيش المسلمين تلك المعركة التى تُسمَّى «معركة الجسر» ، فقد حشد الفرس جيشًا ضخمًا تتقدمه الفيلة المدربة على القتال بقيادة «جاذويه» ، ووقف الجيشان بعضهما أمام بعض يفصل بينهما جسر الفرات.

وسأل «جاوذيه» القائد العربى: من الذى يعبر النهر إلى الآخر؟ وكان من رأى المثنى أن يعبر الجيش الفارسى؛ ليكون هناك فرصة أمام المسلمين للكر والفر والانسحاب إلى الصحراء لو استدعى الأمر، حيث يجيدون المعارك فى الصحراء. ولكن أبا عبيدة رأى وقد أخذته النخوة أن يعبر هو بجيوشه إلى الضفة الأخرى . وأخذ الحماس بعض المسلمين، فحطم الجسر؛ حتى يتفانى المسلمون فى القتال. ووجد المسلمون أنفسهم وجهًا لوجه أمام جيوش جرارة ومسلحة بأعتى الأسلحة ، تتقدمها الأفيال الضخمة

التى أخذت تشق طريقها وسط جيش المسلمين ، ودب الذعر بين صفوف المسلمين ، وتقدم أبو عبيدة بشجاعة منقطعة النظير ليضرب أحد الفيلة بسيفه؛ مما حدا بالفيل أن يدوس هذا القائد الشجاع تحت أقدامه؛ ليلفظ أنفاسه الأخيرة مستشهداً فى سبيل الله.

ورأى المثنى بنظرته العسكرية وخبرته أن الهزيمة المُرَّة سوف تلحق بالمسلمين ، فرجع مع جماعة من المسلمين، ليقيم الجسر؛ ليعبر عليه المسلمون عائدين إلى الشاطئ الآخر؛ ليجمعوا صفوفهم للمعركة الفاصلة. ولأمر لا يدريه أحد لم يتابع الفرس المسلمين، وإلا كانوا قد قضَوْا عليهم وغيَّروا مجرى التاريخ.

وكانت إرادة الله أنْ جَمَعَ شمل العرب مرة أخرى تحت قيادة المثنى، الذى وقف أمام جيوش الفرس للمرة الثانية يفصل بينهم شاطئ الفرات وكانوا تحت قيادة «مهران»، وطلب المثنى من الفرس (عند البويب) أن يعبروا هم لملاقاته.

وما كادوا يتقدمون ، حتى لاقتهم سهام المسلمين ، ولم يأبَهِ المثنى هذه المرة بالفيلة ، فقد أخذ يضرب خراطيمها بسيفه. وتبعه المسلمون، ودارت الدائرة على الفرس ، وتحقق نصر مؤكد للمسلمين، وردوا على هزيمتهم عند الجسر وحققوا نصراً ساحقًا.

وقد ساعد المسلمين فى هذه المعركة العرب المسيحيون؛ لصلة الدم والقربى، وقاتلوا معهم حتى تحقَّقَ النصر.

ويروى الچنرال جلوب فى كتابه «الفتوحات العربية الكبرى» عن هذه المعركة التى غيرت التاريخ العالمى كله بقوله:

«... ومضت المعركة سجالاً .. يتخللها الصراخ والهرج والمرج.. ولكن الفرس لم يُفْلِحوا فى التقدم شبرًا واحدًا .. وأخيرًا قرر المثنى أن يشن هجومه المضاد ، ووضع نفسه فى مقدمة رجال تغلب ونمير من النصارى ، مهيبًا بهم أن يثبتوا عروبتهم.. رغم أنهم ليسوا من المسلمين .. وقاد الهجوم بنفسه مستهدفًا قلب جيش الفرس ودار اشتباك رهيب .. ولفت الميدان سحب قاتمة وكثيفة من النقع .. وقتل فتى نصرانى قائد الفرس مهران.. وسرعان ما انهار قلب دفاع العدو .. فتقدَّمَ الجيش العربى كله إلى الأمام .. وكان فى مقدمتهم جرير على رأس بنى بجيلة، وعرقجة على رأس الأسد ، ومسعود أخو المثنى على رأس بكر . وبدأ العدو ينهار .. وأخذ رجاله يتجهون إلى الجسر على الفرات القائم وراء الجبهة .. ولكن المثنى الذى نفذ إلى القلب .. وصل إلى الجسر أولاً .. وحال بين العدو وبين الوصول إليه.

وعندما رأى الفرس طريق هروبهم قد سد عليهم .. استداروا

يائسين ليشقوا طريقهم عبر صفوف العرب المتقدمة منهم . . وحَمِيَ وطيس القتال بين الفريقين . . وارتفع عدد الضحايا . . وأصيب مسعود أخو المثنى إصابة بالغة . . وعندما رأى الوهن لحق أبناء عشيرته من اصابته . . هتف بهم : ارفعوا رايتكم . . وسينصركم الله . . لا تقنطوا لموتى . . وقتل أيضًا الإنسى بن هلال زعيم قبيلة نمير المسيحى وهو يهجم مع المثنى . . وتحطَّمَ جيش الفرس وقد أصابه الهلع والفوضى . . وظل المسلمون يحتفظون بالجسر . . وراح الفرس يفرون مذعورين هنا وهناك . . وبعضهم يقذف بنفسه فى النهر . . وبعضهم يحاول الاختباء تحت الأعشاب النامية على ضفافه . . والبعض الثالث يستدير ليلقى مصرعه على أيدى الظافرين».

وهكذا كانت معركة البويب انتقامًا لجسر الدامية.

وعندما انتهت المعركة فُرِشَ بساط من الشعر على الأرض العارية، جلس المثنى يستريح عليه من عناء القتال ، ويريح أعصابه مما لحقها من توتر، وتوافَدَ عليه قادة العرب واحدًا إثر آخر يهنئونه بالنصر ، ثم جلسوا متحلقين حوله على التراب، وأخذوا يستعيدون أحداث المعركة، وقال المثنى :

«لقد حارب العرب الفرس فى أيام جاهليتهم وأيام إسلامهم،

وكان المائة من الفرس يغلبون فى الجاهلية ألفًا من العرب. أما اليوم والحمد الله والشكر له يهزم المائة من العرب ألفاً من الفرس».

ويعدد القائد الإنجليزى عبقرية المثنى بقوله:

« ويبدو أن هذا الرجل (المثنى) كان يتصف بجميع الصفات التى تلازم القائد العسكرى العظيم، ولا ريب أن تمكنه بعد كارثة الجسر من جمع جيش جديد وحشده يدل دلالة واضحة على ما فى هذا القائد العظيم من كفاية ، فالمحاربون الذين تمكن من حشدهم إنما كانوا بدوًا لا ضابط لهم ولا زاجر ، وكانوا حتى ثلاث سنوات خلت أو سنتين يشتبكون فى معارك مع المسلمين إبان حروب الردة. ومن هنا يكون التفسير الصحيح لانضباطهم الآن تحت لواء المثنى هو ما يتمتع به هذا القائد من مزايا».

ويبدو أن الإصابات والجراح التى أصيب بها القائد العظيم أثناء معارك الجسر قد أنهكت قواه ، فإذا به يمرض ، ثم ينال الشهادة، دون أن يحقق حلمه العظيم بالقضاء على دولة الفرس كلها ، ودخولها تحت لواء الإسلام.

وسرعان ما تحقق هذا الأمل العظيم عندما أرسل عمر بن الخطاب جيشًا كبيرًا بقيادة سعد بن أبى وقاص؛ ليجابه الفرس ، ويواصل مسيرة القائد العظيم المثنى بن حارثة ، حيث يحقق

انتصارًا خالدًا ومذهلاً على الفرس فى معركة القادسية. وانتصر عليهم بعد ذلك بعامين فى «المدائن» ومن قبلها «نهاوند» ، وتصبح فارس تحت قبضة المسلمين ، وترتفع كلمة التوحيد ، ويتحقق أمل هذا القائد العظيم المثنى بن حارثة أحد الأبطال الذين لم يأخذوا حقهم فى التاريخ، مع أنه واحد من أعظم القادة المسلمين الذين مهدوا الطريق ليكسب الإسلام هذه الأرض الشاسعة ، ويرثوا أكاسرة الفرس ويتحقق وعد الله بالنصر .

﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾** ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

****